التائب المجـــــــاهد

دروس من قصة كعب بن مالك

د هشام صقر

التائب المجـــــــاهد

دروس من قصة كعب بن مالك

مقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبد الله ورسوله، اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

من البدهي في عقيدة الإسلام أن الله عز وجل ختم الشرائع كلها بشريعة الإسلام التي أرسل بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وختم النبوات به فلا نبي بعده، وأنها عامة للناس أجمعين، ومن البدهي كذلك أنها شريعة خالدة إلى يوم القيامة، محفوظة بحفظ الله لها، وحفظه سبحانه وتعإلى بحفظ القرآن الكريم، ذلك الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبحفظ السنة المطهرة لكونها الشارحة المبينة، وكذا المؤسسة لكثير من الاحكام (الا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) (أبو داود والترمذي وابن ماجه).

ولم يقتصر الحفظ على ذلك، فإن حفظ النصوص وحدها لا يكفي حتى يتمثلها رجال، وحتى يكون لها واقع في حياة الناس، لذا شمل الحفظ النموذج الذي يحيا بهذه النصوص ويحي الناس بها بعد ذلك (.. ولن تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) (البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه).

وما دام الكتاب والسنة محفوظين إلى يوم القيامة، وما دام النموذج البشري العالم العامل الداعي محفوظا أيضا إلى يوم القيامة، فلا غرو إذن أن تكون تلك النصوص وافية بالحاجة كافية لهذه الطائفة في كل شأن من شؤون التزامها بهذا الدين والدعوة إليه – إما تفصيلا وإما إجمالا في صورة قواعد كلية – علمها من علمها وجهلها من جهلها.
وبقدر فهم النصوص مع الهمة العالية الصادقة تكون الحياة بها، وبقدر الحياة بها وتطبيقها وتنفيذها يكون الإحياء والإخراج من الظلمات إلى النور، فلا نبي بعد محمد ولكن توجد نبوته، فالمنفي هو شخص النبي صلى الله عليه وسلم أما النبوة فإنها لا زالت قائمة موجودة (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه) (الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي).
وقد نسب النبي صلى الله عليه وسلم معنى البعثة إلى أصحابه رضوان الله عليهم (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) (جزء من حديث أخرجه البخاري، ومالك وأحمد).

وبالرغم من أن المكتبة الإسلامية في وقتنا هذا تحوي الكثير والعديد من الكتب والمؤلفات الإسلامية في الفروع المختلفة – القديم منها والحديث – الا أنه من الملاحظ أن عدم التوجيه الدقيق، وضعف المنهجية في الاطلاع، وعدم التشجيع على التعلم المستمر، وقلة الكتابات (نسبيا) التي تربط القديم بالحديث، وتبين كيفية الاستفادة والتطبيق، وكذلك قلة الكتابات التي تؤصل فقه الدعوة والحركة شرعيا من خلال الدراسة المتأنية للنصوص واستخراج بعض كنوزها، كل ذلك وغيره أدى إلى ضعف عام وإهمال غير مقصود للنصوص الشرعية من هذا الجانب، والتي هي أصل الإسلام والدعوة إلى الله، سواء منها ما يختص بالعبادات أو المعاملات أو الاخلاق أو العقائد، أو بصفة خاصة فقه الدعوة والحركة أو فقه الجهاد .. الخ.
وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح في الساحة الإسلامية من ضعف لدى الشباب في التأصيل الشرعي لمعاني الدعوة والحركة والعمل الإسلامي، فضلا عن الفروع الأخرى المهمة.

إن هناك كتابات كثيرة تربط النصوص بالواقع، وتستخرج فقه الدعوة والحركة من النصوص، إلا أنها تعتبر قليلة بالنسبة إلى مجموع الكتب الإسلامية المطروحة، ولعلي أشير إلى أكبر وأضخم هذه الكتابات وهي تفسير (في ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب رحمه الله، والذي يعتبر أكبر وأعمق هذا النوع من التأصيل إلى يومنا هذا في عصرنا الحديث.

إنه لابد أن تكون هناك إسهامات شتى في التنقيب عن كنوز فقه الدعوة في النصوص والسيرة وأقوال السلف (كل حسب قدرته)، حتى نحظى بأصالة فهم وبركة نطق خرج بعد معاناة طويلة، وحتى يجمع الشباب بين الأصولية الشرعية، والواقعية العصرية، فلا ينفصل عن الأصول، ولا يعيش غريبا عن واقعه واحتياجاته ووظيفته في علاج هذا الواقع.

ومن النصوص التي كنت ولا زلت أتوقف أمامها طويلا عند قراءتها حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، والذي كنت أشعر أنه قصة رجال الدعوة، وأنماط البشر في أداءاتهم، أو حكاية الإيمان على مر الزمان والعصور، وقد كنت أشرح هذا الحديث وأعلق على ما أشار إليه من دروس في الصدق والتوبة والدعوة والجهاد في بعض المساجد، وحيثما واتت الفرصة أو ناسب المقام، وكنت أتوسع في التحليل والتفصيل والمناقشة للأحداث والمواقف التي يحتويها هذا النص النبوي الكريم.

ثم طلب مني بعض الفضلاء أن أكتب وأجمع شتات هذه الدروس ولو باختصار لتنشر وتعم فائدتها، فأحجمت في البداية لما يقتضيه هذا الطلب من تفرغ وجهد وعكوف على المراجع، وتتبع للروايات في مظانها من كتب السنة وتخريجها ... إلخ. لان الكتابة ليست كالحديث في المسجد، فأعاقني ذلك وغيره مدة لا أمكث فيها على هذا الموضوع إلا قليلا، حتى أذن الله أن يتم.
إلا أن التأخر في إخراج هذا العمل جعلني أسرع الخطى في إنهائه، حتى لا تفتر الهمة وتضعف العزيمة، ولا يعلم ما في غد إلا الله، مما يجعل هناك احتمالا لوقوع سهو أو خطأ أو زلة، فجزى الله خيرا كل من أعان ولو بكلمة طيبة ونصح لله، وعفا عن زلاتنا، فالكمال ليس إلا لله، وكل بني آدم خطاء، ورحم الله من إذا رأى زلة سترها، ولصاحبها أهداها ووقي شرها، ومن إذا رأى حسنة أذاعها ونشرها واستوجب أجرها.

وختاما أسأل الله سبحانه وتعإلى أن يأجر كل من قدم النصح أو التشجيع أو المعاونة، وأن يجعل ما في هذا الكتاب من العلم الذي ينتفع به، وأن يرزقنا العمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، وأن يرزقنا الفردوس الأعلى من الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

متن الحـــــــديث

قال ابن شهاب فأخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب كان قائد كعب من بنيه حين عمي قال سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنتُ تخلفت في بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلة العقبة، حين تواثقنا

على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عِندَي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان . قال كعب : فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضى شيئا، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، فقُلْت أتجهز بعده بيومَ أو يومَين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى بلغ تبوك، فقال، وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب ، فقال رجلٌ من بني سلمة : يا رسولَ اللهِ، حبسه برداه، ونظره في عطفيه . فقال مُعاذ بن جبل : بئس ما قُلْت، والله يا رسولَ اللهِ ما علمنا عليه الإ خيرا . فسكت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم . قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل : إن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلْما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال : (تعال) . فجئت أمشي حتى جلست يديه، فقال لي : (ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك) . فقُلْت : بلى، إني والله – يا رسولَ اللهِ – لو جلست عِندَ غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليومَ حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)

. فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي : والله ما علمناك كنتُ أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ؟ك . فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قُلْت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم، رجلان قالا مثل ما قُلْت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقُلْت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلَين صالحين، قد شهدا بدرا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشب القوم وأجلدهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقُلْت : يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال : الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار . قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشأم، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول : من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه : أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك . فقُلْت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأتيني فقال : إن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقُلْت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا، بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقُلْت لامرأتي : الحقي بأهلك، فتكوني عِندَهم حتى يقضي الله في هذا الأمر . قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالتْ : يا رسولَ اللهِ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : (لا، ولكن لا يقربك) . قالتْ : إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومَه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه ؟ فقُلْت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يدريني ما يقول رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن كلامنا، فلما صليت صلاة

الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفى على جبل سلع، بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر، قال : فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجلٌ فرسا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومَئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتلقاني الناس فوجا فوجا، يهونني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك، قال كعب : حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَم جالس حوله الناس، فقام إلى طلحةَ بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحةَ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يبرق وجهه من السرور : (أبشر بخير يومَ مر عليك منذ ولدتك أمك)، قال : قُلْت : أمن عِندَك يا رسولَ اللهِ، أم من عِندَ الله ؟ قال : (لا، بل من عِندَ الله)، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قُلْت : يا رسولَ اللهِ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك) . قُلْت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقُلْت : يا رسولَ اللهِ، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا مالقيت . فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى يومَي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت . وأنزل الله على رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار – إلى قوله – وكونوا مع الصادقين . فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا – حين أنزل الوحي – شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى : سيحلفون بالله لكم إذا انقُلبتم – إلى قوله – فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين . قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله : وعلى الثلاثة الذين خلفوا . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه. متفق عليه.

من فقه الحديث

مقدمة

- كانت غزوة تبوك في العام التاسع من الهجرة، وكان الخروج لمواجهة أحدى القوتين العظميين في ذلك الوقت، ولم يتكلم أحد عن فارق القوة أو التريث أو صعوبة الظروف أو التفاوض، ولم يسأل أحد عن السبب المباشر في الخروج، طاعة للنبي صلى الله عليه وسلم، ورغبة في الجهاد، الذي هو فريضة ماضية إلى يوم القيامة.
- كان الحر والجدب شديدين، وعانى المسلمون الكثير، ولم يقل أحد منهم كما قال المنافقون (لا تنفروا في الحر) فكان تعقيب القرآن في نفس الآية (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون).
- كان التجهيز من راحلة وزاد قليل، مما أعاق الكثير من فقراء الصحابة عن المشاركة في الغزوة، لكنهم لم يستسلموا، فحاولوا بكل طاقتهم ولم يعتبروا أنهم معذورون، بل ذهب بعضهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب الإعانة على النفقة للخروج للجهاد.
- رد النبي صلى الله عليه وسلم من طلبوا أن يحملهم (أي من يريدون الجهاد ولكن لا يملكون نفقته)، لأنه لا يجد ما يحملهم عليه (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون)، **رجال يبكون لأنهم لن يستطيعوا الجهاد ونصرة دين الله والشهادة في سبيله،** لا كما في أيامنا بكاء على فقد الدنيا بأشكالها.
- البكاؤون السبعة نموذج فريد ومثل أعلى للجميع، قصتهم معروفة، بكوا لعدم القدرة على الخروج للجهاد، ومنهم هذا الصحابي (فقال عُلْبة بنُ زيد: اللَّهمَّ إنِّي ليس عندي ما أتصدَّقُ به، اللَّهمَّ إنِّي أتصدَّقُ بعِرْضي على مَنْ نالَه مِن خلْقِك، فأمر رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مناديًا فنادى: أين المتصدِّق بعِرْضه البارحةَ؟ فقام عُلْبَةُ، فقالَ صلَّى الله عليه وسلَّم (قد قُبِلت صدقتُك)، وفي رواية (أبشِرْ فوالذي نفسُ محمَّد بيدِه لقد كُتبت في الزَّكاة المتقبَّلَة)) الإصابة لابن حجر.

من فقه الحديث

(1) سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوة غزاها الإ في غزوة تبوك، غير أني كنتُ تخلفت في بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها،

ا- القدرة على الاعتراف بالخطأ والتحديث به دون حرج، هو مدخل التوبة، مع الندم والعزم ألا يعود إلى ذنبه أبدا، أما التبرير والتأويل فلا يؤديان إلى التوبة، بل يزيدان الأمر سوءا ودفاعا.

ب- من مواصفات المؤمن التي يفتخر بها أداءه للواجبات الكبرى، فهو لم يتخلف عن غزوة في سبيل الله، وشرح لنا كعب رضي الله عنه أن تخلفه عن بدر لم يكن عن تقصير، لأن الخروج كان أصلا للعير، ولمن يستطيع في الحال، ولم يستنفر الجميع لها، ثم تطورت الأحداث فكانت غزوة بدر الكبرى، وكل ذلك كتوطئة للحديث عن تخلفه عن الغزوة.

ج- فقهه وفهمه الكبير في فهم قيمة وأهمية بيعة العقبة الثانية، وأنها لا تقل عن بدر عند كعب على فضلها، وإن كانت بدر أشهر منها في الناس، **فبيعة العقبة هي أصل الولاء والبراء والجماعة والجهاد، وهذه كلها أصول إسلامية وقواعد.**

(2) كان من خبري : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عِندَي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان .

ا- الاعتراف بالذنب والخطأ هو بداية التوبة والخير، أما التأويل والتبرير فلا يؤديان إلى خير قط، بل إلى التمادي في الخطأ ثم الدفاع عنه، فبدأ بوصف نفسه وأنه لم يكن له عذر، فلم يكن أقوى ولا أيسر منه في هذه الغزوة (الصدق بأنواعه).

ب- الدقة والحذر نتعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في التورية وإخفاء بعض الحقائق منعا لتسرب الخبر، أو فتح مجال للأحاديث الجانبية بين الجند، وغير ذلك، كما فعل في معظم غزواته، وأهمية هذا المعنى تخطيطيا وأمنيا، فلا علاقة لهذا بالثقة أو الاحترام، وإنما بالمصلحة والتعليم لأجيال المؤمنين.

ج- ولم يورّ النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة لأسباب لعل منها : الصعوبة الشديدة، البعد المكاني، قوة العدو، هيبة العدو في نفوس العرب (كأمريكا اليوم)، التهيئة النفسية والمادية للمجاهدين، وهذا من فقه العمل الجماعي والجهاد، فالتورية عند الحاجة والمصلحة، والإعلان عند الحاجة والمصلحة.

د- لم تكن الأسماء مسجلة في ديوان، وحين تكثر الأعداد تكون فرصة الكسالى وضعاف النفوس والمنافقين أن يتخلفوا دون أن يدري بهم أحد من البشر، فينسون أن الله يراهم ويعلم ما في قلوبهم وما هو أخفى من ذلك، كما فعل المنافقون في تبوك.

(3) **قال كعب : فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال (وفي رواية مسلم: فأنا إليها أصعر)، وتجهز رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضى شيئا، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، فقُلْت أتجهز بعده بيومَ أو يومَين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك،**

ا- استشعار رقابة الله سبحانه، والصلة بالوحي، وهما رأس مال المؤمن في الحياة، ومرتكز إيمانه، والموجه لتصرفاته ومواقفه، فلا ينظر إلى الناس وأقوالهم ونظرتهم إليه، ولكن ينظر إلى ربه وحده، هل يرضى عنه.

ب- ومما زاد الأمر صعوبة أن النبي صلى الله عليه وسلم غزا في وقت الحصاد والخير، مما يقتضي قوة المؤمن على ترك الدنيا عمليا، والنفرة في سبيل الله، فإنها فتنة الراحة وإمكان الاسترخاء (الثمار والظلال)، وإمكان التبرير الخادع، وقد ذكر في رواية مسلم أنه يحب الثمار والظلال ويميل إليها.

ج- التأجيل والتسويف والتأخر (ولو مع حسن النية) عاقبتهم وخيمة، وهو لب القصة كلها، يظن الإنسان انه سيفعل أو سيلحق أو سيؤدي، ويتمادى به التبرير حتى يفوته خير كبير، أو يقع في إثم عظيم، مع

حسن النية، والرغبة في البذل، فتصبح القاعدة واجبة الاتباع : **أسرع لفعل الخير عامة، والواجب منه خاصة، ولا تستسلم للظروف إلا ما كان ضرورة حقيقية، واعلم ان الله مطلع عليك.** (راجع قصة البكائين السبعة).

د- (فلم يقدر لي) عنوان كبير هام يجب فهمه بدقة، فالأمور تجري بقدر الله ومشيئته، المحببة وغير المحببة، المفهومة وغير المفهومة ابتلاءا، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا من أصول العقيدة.

(4) فكنتُ إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى بلغ تبوك، فقال، وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب، فقال رجلٌ من بني سلمة : يا رسولَ اللهِ، حبسه برداه، ونظره في عطفيه، فقال مُعاذ بن جبل : بئس ما قُلْت، والله يا رسولَ اللهِ ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

ا- حساسية النفس المؤمنة : لم ير كعب إلا معذورا أو منافقا ممن تخلفوا، فأين هو منهم، وما تصنيفه وهو يعلم أنه غير معذور، فهي محاسبة النفس بقوة ومواجهتها بحسم، والصدق مع الله ومع النفس، والاعتراف بالذنب، إن معرفة الخطأ وعدم تبريره للنفس تُري الإنسان الحقائق واضحة (لا أرى إلا .....).

ب- لا يتغيب عن الجهاد إلا أحد رجلين : منافق، أو معذور، وهذا معنى أساسي في الإسلام، مع دقة فهم الجهاد والإعداد له.

ج- المتابعة وسؤال القائد عن أصحابه حين يلحظ غيابهم عن بعض الواجبات الهامة، والمواقف الحاسمة، وعدم انشغاله بالواجب عن إخوانه وأتباعه، والتحقق من أداءاتهم وأحوالهم.

د- التنوع بين البشر في التقدير يتجلى في اختلاف موقف الصحابيين الجليلين في الإجابة، فالأول يمثل الصراحة الشديدة المؤلمة بلا تخفيف أو تأويل، والمتعلقة بالموقف كرجل بني سلمة، والثاني يمثل حسن الظن والتأويل والشهادة بالحق لعموم تاريخه السابق كمعاذ، وكلا الأمرين مطلوب في حينه، مع تغليب لحسن الظن لأصحاب السابقة الطيبة إلى أن تظهر الحقائق.
إن قول صاحب بني سلمة فيه شيء من الحق رغم قسوته في الحكم على كعب، وقول معاذ الذي أحال إلى تاريخ كعب وصدقه وعدم الحكم عليه من واقعة واحدة أيضا فيه شيء من الحق.

هـ- عدم تعقيب النبي صلى الله عليه وسلم، فالقائد لا يصدر أحكاما بتسرع، أو على أساس معلومات غير موثقة أو دقيقة، وسكوت الرسول صلى الله عليه وسلم، يعني إقرارا بالوجهتين، وهذا الموقف فيه من فقه التوثيق والتضعيف، وفقه إصدار الأحكام على المؤمنين الكثير.

(5) قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همّي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل : إن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلْما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله،

ا- ارتباك المذنب وحيرته فيما يجب فعله، أيفضح نفسه أم يكون مع المعتذرين، وقد حدث هذا لكعب عند عودة النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة، لكن الصالحين لا يزيدون ذنبا إلى ذنبهم، بل يصدقون ويعترفون لعل الله ان يقبل منهم توبتهم.
إن إدراك الخطأ والندم عليه هو الخطوة الأولى في التوبة وإصلاح السلوك، واستشارة أصحاب الرأي من الصالحين يدعم ويثبت الفرد في ادائه.

ب- خواطر الكذب للخروج من المأزق (خاصة وسط زحام كذب المنافقين المتوقع) هو إلقاء من الشيطان مع التبرير بأنك تبت، ولا داعي للفضيحة بين الناس، واستر نفسك، وغير ذلك من الوسوسات.

ج- (زاح عني الباطل) أي شرح الله صدره للصدق مهما كانت العواقب، فهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر وأخفى.
د- (لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب) فيه تغليب معية الله ورقابته، وتغليب الخوف منه ومن عقابه على الخوف والحرج من الناس، وهذا سلوك لو اتبعه المؤمنون اليوم لانصلح الكثير من أحوالهم وعلاقاتهم.

هـ- المسجد نقطة الانطلاق، وهو محور حياة المؤمنين، فالرسول يبدأ به دوما فيصلي ثم يجلس إلى الناس يسمع منهم، ويرد على تساؤلاتهم، ومسألة تواصل القائد بمن معه والاستماع إليهم دوما مسألة أساسية في فقه العمل الجماعي، وهكذا القائد المسلم دوما.

و– الجلوس للناس والاستماع إليهم، وقبول الأعذار والأيمان وإن علم عدم صدقها، وقبول العلانية، والمبايعة والاستغفار لهم، وإيكال أمرهم إلى الله، وعدم محاسبتهم على ظاهر خطئهم، دروس للقادة والمؤمنين في جواز فعل ذلك للمصلحة العامة أو الضرورة.

(6) فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: (تعال) فجئت أمشي حتى جلست يديه، فقال لي : (ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك)، فقُلْت : بلى، إني والله – يا رسولَ اللهِ – لو جلست عِندَ غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليومَ حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)، فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لك، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قُلْت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم، رجلان قالا مثل ما قُلْت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقُلْت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلَين صالحين، قد شهدا بدرا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي،

ا– تبسم النبي صلى الله عليه وسلم تبسم المغضب ونادى على كعب وسأله عن قدرته على الخروج للجهاد ليسمع منه هو، ثم يقدر الموقف والحكم، وهذا درس عام للمؤمنين، وللقيادات بصفة خاصة، في التيقن والبحث عن وجه الحق بالاستماع من المتهم نفسه، ومناقشته فيما يقول، قبل إصدار أي احكام.
كما يظهر من تبسم النبي صلى الله عليه وسلم استمرار الحب حتى في حالة الخطأ، والنداء اهتماما، والتحري عن الحقيقة بالسؤال، وهي واجبات أساسية للقائد.

ب– كان كعب صاحب حجة وقدرة على الاقناع، لكنه لم يستخدم هذا مع من يوحى إليه من ربه صلى الله عليه وسلم، لئلا يسخط الله نبيه على كعب كما قال، وهذا هو سلوك المؤمنين الموقنين بالله واليوم الآخر، يصدقون فيعترفون ثم يستغفرون ويتوبون ويرجون من الله فضله وكرمه.
فلم يرض كعب أن يكون من المخلفين المعتذرين المبررين لتخلفهم فيقبل منهم النبي علانيتهم، مع فساد سريرتهم وسوء عملهم، لأن الله يعلم السرائر، ويحاسب الناس على الحقائق، لا الادعاءات الكاذبة والتبريرات

الواهية. فشرح كعب الحالة النفسية، والقدرة، والخواطر، للقائد، قبل طرح الحقيقة المؤلمة المحرجة، وهي تخلفه بغير عذر، مع خشية الله، ورجاء عفوه.

ج- قوله صلى الله عليه وسلم (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)، فيه تقدير النبي لصدق كعب وتصديقه، وفيه إظهار لكذب الآخرين من المخلفين عدا من فعل مثله، وإحالة الأمر إلى الله ليقضي فيهم، فيه إظهار لعظم الذنب المرتكب بحيث لا يقضي فيه إلا الله، فأين من يستهينون بالذنوب الكبيرة اليوم، بل من يكادون ينكرون فريضة الجهاد والأمة في أسوأ حالاتها، وأصبح الجهاد فيها فرض عين على الجميع بلا استثناء، مع ملاحظة أن تبوك لم يحدث فيها قتال أصلا، لكن كل ذلك تعليما وتوضيحا وتحذيرا.

د- مراجعات الأحباب العاطفية قد تكون خطأ، وقد تدفع إلى مزيد من الخطأ، ولو بدون قصد، ففي مثل هذه المواقف والأخطاء لا يعالج الأمر بالعاطفة والرغبة في الانفلات عن العقوبة، أو تجنب الفضيحة، أو غير ذلك، إنما يعالج بالفهم الصحيح للموقف، والتوجيه الفكري العلمي الصحيح وإن بدا مؤلما، لا بالانفعال والعاطفة، كما حدث من رجال بني سلمة مع كعب، فكاد أن يغير موقفه فيتوه في زحام المنافقين، ولكن يكون اللجوء إلى الأصل والحق هو مفتاح النجاة، فالصدق، والتوبة، وتحمل عواقب الخطأ برضا، والأمل في عفو الله، هي الطريق إلى عفو الله ومغفرته.
وقد عصمه الله بالسؤال عمن معه في هذا الأمر، والثناء عليهما، والاستمرار على صدقه وموقفه، وفيه ايضا معرفة المؤمنين بعضهم لبعض، والتأثر بمواقفهم الصحيحة، والاستئناس بهم.

(7)ونهى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشب القوم وأجلدهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقُلْت : يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال : الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار،

ا- كان الجزء الاول من العقوبة أمر المؤمنين ألا يكلموا الثلاثة الصادقين الموكول أمرهم إلى الله، ولا يتعاملوا معهم على الإطلاق، فيجد كل منهم إخوانه وأحبابه لا يكلمونه ولا يردون عليه، فيشعرون بالغربة وتنكر أرض المدينة المنورة المباركة لهم، وكأنهم لا يعرفونها ولا تعرفهم، ويشعرون بالحزن الشديد، والألم القاسي، بينما يعيش المخلفون الكاذبون الذين قبل منهم النبي علانيتهم، بشكل طبيعي، وكأنهم قد نجوا باعتذارهم، وشتان شتان بين الاثنين عند الله.

ب- مواقف في المقاطعة :

1. قعود وبكاء صاحبيه الشيخين في بيتيهما على ذنبيهما، واعتزال الناس إلى أن يقضي الله أمره في هذا البلاء.
2. مجالدة كعب وخروجه في الأسواق وإلى الصلاة، وشعوره بالألم من مقاطعة الناس له، وفيه حماسة الشباب ومقاومتهم ورغبتهم العارمة في تحسن الأمر.
3. رفق النبي القائد صلى الله عليه وسلم به، فينظر إليه إذا التفت إلى صلاته ويعرض عنه إذا التفت إليه، تنفيذا لأمر المقاطعة الذي أصدره، ولا يستثنى منه أحد، وفيه أيضا العاطفة والحب بينهما على الرغم من الالتزام بالمقاطعة.
4. وموقف أبي قتادة ابن عمه وأحب الناس إليه الذي التزم بالمقاطعة رغم العاطفة الكبيرة بينهما، وعدم رده عليه في البداية، ثم الرد المؤلم، وبكاء كعب وانصرافه محرجا ومتألما، وكل ذلك دروس للثلاثة وللمؤمنين، ولنا إلى يوم القيامة، وفيه الالتزام والضبط الذي يغلب العاطفة ويحكمها.

(8) قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول : من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه : أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك . فقُلْت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها،

ا- التآمر الخارجي والفتنة : العمل المخابراتي المعلوماتي (فإنه قد بلغني)، والتحرك السريع للاستقطاب والاحتواء والإغداق، ثم الاستغلال، كما يحدث إلى يومنا هذا، بل اليوم يكون التدسس أشد والمداخل أكثر وأخطر، ويدخل الشيطان من مدخل الانتصار للنفس، أو الاتهام بعد التقدير، بل قد يعمل لصالح أعداء الله وهو يحسب أنه يحسن صنعا، أو يتأول تأولا فاسدا ضالا، مثل موالاة الطواغيت والالتزام بأمرهم.

إنه الصيد في الماء العكر، ومحاولة تجنيد أي فرد يكون على خلاف مع قيادته، أو معاقب، أو معترض، أو غاضب، أو معتزل، فيكون الإغراء والترغيب، ودغدغة المشاعر، والوعود الخلابة، حتى إذا ما استجاب سقط سقوطا لا قيام بعده إلا من رحم الله.

ب- إن عقيدة الولاء والبراء تنجي العبد الصالح في المحن، فهو يلتصق بالمؤمنين، ويواليهم، وإن خالف بعضهم، أو ظلمه بعضهم، ويعادي المحاربين لله ورسوله والمفسدين في الارض، وإن أظهروا له ودا وتفهما واستجابة، فالله أعلم بخلقه وبدينه منا، وقد أمرنا بالولاء والبراء، فما كان من كعب إلا أن قال ببساطة وعمق (وهذه أيضا من البلاء)، فحرق الرسالة ولم يتدارسها دبلوماسيا (وإمكان الاستفادة منها ومن الموقف المتفهم لملك غسان، وربما الزعم بأنه يمكن أن يدعوه فيكسبه للإسلام، وهيهات لخداع النفس).

(9) حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأتيني فقال : إن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقُلْت : أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقُلْت لامرأتي : الحقي بأهلك، فتكوني عِندَهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالتْ : يا رسولَ اللهِ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : (لا، ولكن لا يقربك) قالتْ : إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومَه هذا. فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه ؟ فقُلْت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يدريني ما يقول رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن كلامنا،

ا- بعد أربعين ليلة والأمل كبير في قبول التوبة، إذا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتزال النساء يزيد الأمر شدة، وكأن العقوبة تزيد لا تقل، وتزداد الوطأة على النفوس، وفي ذلك ضغط نفسي كبير، وإيحاء مخيف لذلك التصعيد في العقوبة، فصبروا على حالهم، وانتظروا فرج الله.

ب- الانضباط الكامل والالتزام الصارم يظهران في سؤال (أطلقها أم ماذا أفعل) الفوري، دون مراجعة أو مجادلة، وانضباط المجتمع كله في الالتزام رغم الصعوبة والألم، وكل هذا في غزوة لم يحدث فيها قتال، لكن لبيان فداحة جريمة التخلف عن الجهاد في سبيل الله دون عذر شرعي صحيح مقبول.

ج- استئذان زوجة هلال لحالته (شيخ ضائع، ليس به إلى حركة من شيء)، وإذن النبي صلى الله عليه وسلم لها فيه من التفهم والرحمة مع تنفيذ العقوبة، بعد بيان المقصود دون حرج، فالعقوبة قائمة لكن الرحمة والتفهم مصاحبان، وهذا هو شأن الإسلام والقيادة فيه، حزم ورحمة، ضبط وتفهم.

د- والعجيب أن حالة هلال الموصوفة، والتي تفهمها النبي وأذن له في الخدمة، لم تمنع من استمرار العقوبة على تخلفه عن الجهاد، حتى وهو في هذه الحالة (انفروا خفافا وثقالا)، فيا ويل المتخلفين عن الجهاد والإعداد بغير عذر، أو بتأول فاسد.

(10)فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفى على جبل سلع، بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر، قال : فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إلي رجلٌ فرسا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومَئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتلقاني الناس فوجا فوجا، يهنئونني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك، قال كعب : حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَم جالس حوله الناس،

ا- صلاة فوق ظهر البيت تجنبا لألم المقاطعة، وهمّ وغمّ، ثم يأتي الفرج جملة، صوتا وركضا وتبشيرا، فسجود لله شكرا، وتأتي البشارة بعد خمسين ليلة، ودرجة الانفعال الإيجابي عالية من الجميع، فرحة كعب لدرجة إهدائه لثوبيه وما يملك غيرهما، وفرحة الصحابة، فمنهم من نادى من أعلى الجبل، ومنهم من سارع بفرسه ليبلغه بالتوبة، ويتلقاه الناس فوجا فوجا ليهنؤنه بالتوبة، ليقدم لنا صورة رائعة لمجتمع المؤمنين المتحاب في الله، الحريص على إقالة العثرات والتوبة من السيئات، المحب للخير دوما.

ب- صورة مجتمع أخوي حقيقي متحاب، انفجرت مشاعره المكبوتة (بسبب تنفيذ الأمر) حين جاءت البشرى فأرسلت المشاعر، والتهنئة بقبول التوبة الذي لا يعدله شيء، وشعور بالعودة إلى محضنه ومكانه الطبيعي الوحيد، وملاذه الآمن بين إخوانه، ومجتمعه الفاضل المجاهد.

ج- ثم دخول إلى المسجد، المقر العام للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ليسمع بنفسه البشرى من مصدرها، ويعود عودا حميدا إلى إخوانه وأحبابه.

(11)فقام إلى طلحةَ بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجلٌ من المهاجرين غيرِه، ولا أنساها لطلحةَ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يبرق وجهه من السرور : (أبشر بخير يومَ مر عليك منذ ولدتك أمك)، قال : قُلْت : أمن عِندَك يا رسولَ اللهِ، أم من عِندَ الله ؟ قال : (لا، بل من عِندَ الله)، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قُلْت : يا رسولَ اللهِ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك) . قُلْت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر،

ا- (ولا أنساها لطلحة) تبين أن التصرفات الصغيرة في وقت حرج أو هام تحفر في قلب ونفس الإنسان، فمثل هذه المبادرات السلوكية مطلوبة دوما في العلاقات بين الاخوة في المجتمع المسلم، فالمواقف الطيبة خاصة في الأزمات لا ينساها الأوفياء الصالحون، وإحسان التصرف فقه عزيز.
ولا يعني ذلك عدم سعادة المهاجرين الآخرين بتوبة كعب، لكنهم تعاملوا بطريقة طبيعية فلم يقوموا له، وإنما كانت السعادة والتهنئة وهم جلوس حول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ب- سعادة القائد النبي صلى الله عليه وسلم بتوبة الله على كعب، وظهور ذلك على وجهه، درس كبير في تعامل القائد مع الجندي المخطئ التائب المقر بذنبه النادم عليه، فربما يعاقبه، لكنه يريد له الخير والصلاح، كما لا يكون الأمر سبب معايرة له فيما بعد، أو انتقاص من قدره (فيتبعه الجنود في ذلك فتخدش الأخوة والترابط)، وإنما لا يشعر إخوانه بتمايز على أخيهم، ويدركون أن كلا منهم كان من الممكن أن يقع في مثل ما وقع فيه، فيحمدون الله على العافية ويحتضنون أخاهم التائب.

ج- ومن فرحة كعب بقبول توبته تصدق بكل ما يملك، فراجعه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فاستجاب، **فهو لم يكتف بقبول التوبة، أو يركن، أو يغتر، إنما زاد في البذل،** وهكذا المؤمنون ينتقلون من خير إلى خير، ولا يكتفون من الخير، فالخير سلاسل متعاقبة، وكذلك الشر والعيب.
حين يأتي الخير للإنسان فإنه لا يأنس ويكتفي، بل يؤدي الشكر الواجب عليه، وهذا ما فعله كعب حينما أراد أن ينخلع من ماله كله لله ورسوله، ويجب علينا أن نتخيل معنى ذلك عمليا وصعوبته، لكن الرسول

القائد يأمره بأن يحفظ بعض ماله لنفسه وعياله، لنتعلم نحن البذل مع المسؤلية حيال من نعول، ولكي نستطيع استكمال جهادنا دون أن ننشغل بطلب الرزق عن دعوة الله.

د- وحينما تكون التوبة من الله بآيات من القرآن، تتلى إلى يوم القيامة، والله هو المبتغى والمنتهى في الرجاء، يكون الفرح مضاعفا، واستشعار حب الله ورحمته للعبد، وأن الذنب كأن لم يكن، إضافة إلى رضا الله العظيم الكريم.

(12) فقُلْت : يا رسولَ اللهِ، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى يومَي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار - إلى قوله - وكونوا مع الصادقين. فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا،

ا- لقد نجّى الله تعالى كعب بالصدق الذي كان منه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر الله تعالى المؤمنين بالصدق وبملازمة الصادقين في آية التوبة، فإن الصدق مع الله، ثم مع النفس، ثم مع الناس، طريق للنجاة، ولاستجلاب رضا الله ورحمته وغفرانه حتى مع الذنب العظيم. ولقد وعد كعب النبي ألا يحدّث إلا صدقا بقية حياته كلها، ويصف نفسه بأنه قد التزم بذلك فعلا بأقصى طاقة.
فبعد أن تصدق يعود فيضيف عهدا مع الله ألا يحدث إلا صدقا بعد ذلك إتماما لتوبته، والمقصود بهذا الصدق الموعود هنا التحري الشديد، والمبالغة في الصدق، والمراجعة الدائمة، فضلا عن الصدق الذي أمر به المؤمنون في حياتهم كلها، والذي هو فريضة في الإسلام.
والصدق الأصعب هو الصدق عند الخطأ، أو عند الأزمة، أو عند الحاجة، فضلا عن الصدق العام الذي هو فريضة على المؤمنين جميعا.

ب- إن معايشة القرآن واستشعار معانيه من أهم صفات المؤمنين الصالحين، فما بين (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ... الآيات)، وبين (ثم تاب عليهم ليتوبوا) (وكونوا مع الصادقين)، شتان شتان بينهما، إننا يجب أن نعرض أنفسنا على القرآن، ونفهم مراد الله منا، وأمره لنا، حتى نقترب من أولئك الأفذاذ الأوائل، وننعم برضا الله علينا في الدنيا والآخرة.

ج- كل هذه القصة الرائعة ومعانيها الجميلة ودروسها الكبيرة إنما نزلت في غزوة لم يحدث فيها قتال مع العدو، فلماذا؟. إن القضية ليست قضية المواجهة الفعلية مع العدو فقط، إنما هي قضية الالتزام والتضحية لنصرة هذا الدين، قضية الاستجابة لأمر الله، كما هي قضية اختبار لحقيقة الإيمان في القلوب وفي الأعمال من بعدها.

إنها قضية إعداد الأمة لمواجهة القوى والدول الكبرى المحاربة لله ورسوله ودينه، ليكون الدين كله لله في المرحلة المقبلة، هي قضية بيع كل شيء لله ابتغاء مرضاته والجنة، وقد جاءت الآيتان التاليتان للتعقيب القرآني على القصة (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ....) (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ...) لتؤكدا لنا هذا المعنى الهام لحقيقة الإيمان عمليا.

د- (كما هلك الذين كذبوا) يقولها موقنا وإن لم ير هلاكهم في الدنيا، وهكذا يتعامل الصالحون مع الحقائق الإيمانية كاليوم الآخر، والحساب، تعامل يقين، وكأنهم يشهدونه واقعا بأعينهم.

(13) فإن الله قال للذين كذبوا - حين أنزل الوحي - شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى : سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم -إلى قوله- فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين. قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله : وعلى الثلاثة الذين خلفوا . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه. متفق عليه.

ا- يذكر كعب بآيات التوبة في المنافقين، وما وصفهم الله به في الآيات من أوصاف شديدة (رجس، مأواهم جهنم، لا يرضى الله عنهم)، ويحذر المؤمنين من الرضى عنهم، أو التأثر بهم، أو موالاتهم، ويبين لهم أنهم هم العدو (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون).

ب- ويشرح كعب أنّ (خلّفوا) في الآية ليست التخلف عن الغزو، وإنما تخليف الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم وإرجاؤه أمرهم.

ج- قوم لا عذر لهم حلفوا بالله كذبا، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، وقوم لا عذر لهم اعترفوا بذنبهم، وعوقبوا، ثم قبل الله توبتهم في قرآن يتلى وسنة تدرس.

فأي الفريقين خير: أهل المظاهر والشكل والدنيا أم أهل الحقيقة والصدق والآخرة.

د- أقسام ثلاثة من البشر في القصة :

خروج وبذل وجهاد، وذنب وصدق وتوبة، ونفاق متلاعب وجهنم.

خاتمة

وملخص القضايا الأساسية التي وردت في الحديث للتذكرة :

1- خلاصة القصة: خروج وبذل وجهاد، أو ذنب وصدق وتوبة، أو نفاق متلاعب وجهنم، فاختر لنفسك.

2- خطورة التسويف والتأجيل والكسل والإرجاء، فنقع في الإثم، أو على الأقل تضيع فرص الخير.

3- وجوب البذل والتضحية والجهاد في سبيل الله، وهو علامة صدق الإيمان.

4- البكاءون السبعة نموذج لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من شوق ورغبة في البذل والجهاد.

5- بيعة العقبة هي أصل الولاء والبراء والجماعة والجهاد، وهذه كلها أصول إسلامية وقواعد.

6- استشعار رقابة الله سبحانه، هو رأس مال المؤمن في الحياة، ومرتكز إيمانه.

7- الصدق مع الله، ومع النفس، ومع الناس، والاعتراف بالخطأ والاستغفار، وعدم التبرير، مدخل للتوبة، ورضا الله.

8- فقه القيادة بين التورية والإخفاء، وبين التوضيح والإعلان، بحسب ما تقتضيه مصلحة المؤمنين.

9- خطورة التخلف عن الجهاد في سبيل الله بغير عذر شرعي صحيح.

10-الالتزام الكامل بقرار المقاطعة رغم الحب وأمنية قبول التوبة، مع السمع والطاعة من الجميع.

11-تآمر أعداء الإسلام، وفتنة الاستقطاب، والتلاعب والمناورة، لن تنقطع أبدا، وخطورة عدم فهم ذلك.

12- قاعدة: أسرع لفعل الخير عامة، والواجب منه خاصة، ولا تستسلم للظروف إلا ما كان ضرورة حقيقية، واعلم أن الله مطلع عليك.

13- علاقة القائد بالجنود الشاملة أساسها الحب والأخوة، ثم التوجيه والتربية، ثم الضبط والحزم.

14- صورة المجتمع الأخوي المتحاب في الله، المنضبط الملتزم.

15- اختلاف البشر في التقدير والتقييم أمر طبيعي تضبطه القيادة والقواعد.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

2021/12/23 ماليزيا.